

دياجة- اللغة العربية في إسرائيل:

رؤيا وتحديات*

أ.د محمد أمارة

رئيس برنامج الماجستير في تدريس وتعلم اللغات في الكلية الأكاديمية بيت بيرل
ومدير وحدة البحوث في «دراسات» - المركز العربي للحقوق والسياسات.

في إسرائيل، هي لغة أمّ حاملة لثقافتنا وهويتنا وانتمائنا، وهي فضاءنا العربي بمكوناته القومية والثقافية والدينية على ما فيه من تعدد يمنحنا خصوصيتنا ويمدنا بطاقة وحيوية وسط شروط وجودية معيقة نشأت غداة النكبة وتتمثل في غربة في الوطن والحيز اللغوي وانحسار مكانتنا ومكانة لغتنا فيه.

كنا نتمنى أن تضطلع لغتنا العربية بوظيفتها الأوسع كما أشير إليه، إلا أننا على إدراك تام للبيئة اللغوية-الاجتماعية-السياسية التي نعيش وسطها، والمنافسة المفروضة على اللغة العربية في البلاد من اللغة العبرية بوصفها لغة الحراك العام في الدولة والتواصل اليومي، ومن الإنجليزية كلغة الاقتصاد والتكنولوجيا والعولمة. ومع هذا، فإننا نريد لأنفسنا والأجيال من بعدنا شروطاً تتيح تطوير علاقة حميمة بلغتنا من خلال تمكينها من القيام بكل وظائفها، وجعلها

بناءً على ما أنتجه مجتمعنا من أفكار وطروحات فكرية تتعلّق باللغة والهوية والحقوق الثقافية، وانطلاقاً مما أوحى به، وتأسيساً على وثائق رؤيوية جماعية سابقة بوصفها نصوصاً مؤسّسةً ناظمةً، رأينا أن نخطو في مسار الاهتمام بلغتنا خطوة أخرى لنضع وثيقة رؤيوية تتصل بسياسات اللغة العربية وإدارتها. وقد انطلقنا في ذلك من الفرضية العلمية الاجتماعية القائلة بالمفهوم الواسع للغة التي تشكّل في منتهائها هوية الجماعة الناطقة بها بكل أبعادها، بتاريخها وذاكرتها وثقافتها ومعاييرها وتطلعاتها ومنظومة القيم الخاصة بها. وهي ذلك الحيز الذي تحقّق فيه الجماعة ذاتها يومياً وتمارس في رحابه وجودها.

اللغة العربية بالنسبة لنا، نحن العرب الفلسطينيين

* دياجة الرؤيا التي وضعها مركز دراسات، المركز العربي للحقوق والسياسات، لجنة متابعة قضايا التعليم العربي والمجلس التربوي العربي، 2013.

حيزا للحراك نعيش وننتج به ذواتنا كأفراد وجماعة. وهو موقف مبدئي من لغة أم نريد الانطلاق منها وبها إلى تعددية لغوية تُتيح لنا الاتصال مع سياقنا وما فيه من ثقافات ولغات من خلال الانفتاح على الاختلاف والتعدّد اللغوي.

ليس خافيا علينا أن أسبابا تاريخية لغوية وسياسية وسيكلوجية حالت دون نهوض اللغة العربية هنا بالوظائف المرجوة منها كحاملة لهوية وثقافة أقلية وطن أصلانية ألّفت نفسها في معركة بقاء على مستويات عدة، وكحيّز حدثي حيوي قادر على النماء واحتواء حركة الحياة والعلوم والمعارف الجديدة. فقد اعتمدت دولة إسرائيل سياسات لغوية قضت وضوحا بتفضيل اللغة العبرية ومنحها الريادة، بل الحصرية، في تصميم الحيز العام علما بكون العربية لغة رسمية وفق القانون الاسرائيلي الموروث عن مرحلة الانتداب البريطاني. عمدت الدولة ومؤسساتها منهجيا إلى إقصاء اللغة العربية وخفض شأنها كجزء من ترسيخ أسس الدولة اليهودية واستحواذ اللغة العبرية على الحيز المكاني والاجتماعي والسياسي. من هنا، فإن اشتغالنا بلغتنا وإدارتها هو اشتغال بالوجودي في سياق يتّسم بهيمنة العبرية كلغة السياسة والحراك، وبمنافسة الإنجليزية كلغة التواصل عالميا.

لقد خبرنا كجماعة قومية أصلانية بالتجربة والمعرفة أهمية اللغة بالنسبة لنموننا وتطورنا. ومع هذا، فقد ظلّ تعاملنا مع لغتنا لردح غير قصير من الزمن تعامللا بيداغوجيا على نحو كيف ندرّسها، أو نحويا صرفيا على نحو «قل، ولا تقل!» أو رومانسيا بالتغني بجمالها وبلاغتها وأمجادها.

بمعنى، أن تعاملنا مع لغتنا لم يرق إلى مستوى إدراكنا للمعيقات التي تعترض نماءها وازدهارها، وللحاجة إلى ذلك في شرطنا الراهن. فقد تكون غابت عن تجربتنا مشاريع إدارتها ووضع سياسات لحمايتها وتمكينها وتطوير علاقة حوارية معها، وهو ما أسهم في التقليل من شأنها ومن قصور في نمائها وتطورها. نقول هذا مدركين أن اللغة العربية عانت من مظاهر الوهن في المجتمعات العربية كافة، وأن الحكومات والدول العربية أخفقت، هناك أيضا، في ضمان تطوّر اللغة العربية في مقتضيات الحداثة وتراكم المعارف الجديدة والعلوم والخبرات في الحقول كافة. وعليه، فقد شاركت الشروط السياسية المحلية والإقليمية التي أحقت باللغة العربية في تعميق إشكالية العلاقة بيننا وبين لغتنا هنا. وهي لغة، بدت مرتبكة، ليس أمام اللغات الأخرى وسؤال الحداثة وتطور العلوم فحسب، بل أمام بنائها الداخلية لا سيما ازدواجيتها بين لغة معيارية ولغة محكية، وتخلّف المؤسسات ومجامع اللغة عن نجدتها وإنتاج مشاريع وسياسات تنهض بها.

تواجه لغتنا العربية في شرطنا الراهن جملة من التحديات في ضوء ما تراكم من عوامل عدة تاريخية وسياسية وموضوعية أعاققت الاضطلاع بوظائفها لاسيما ما يتصل منها بتوكيد الهوية والثقافة وحفظهما، واحتواء ما بعد الحداثة في الحياة والعلوم والمعارف. هذا، فيما أفضت السياسات اللغوية في إسرائيل إلى محاصرة اللغة العربية في حيزها الخاص ومنع نشوء حيّز عام يُتيح حراكا حرا وكاملا باللغة العربية باعتبارها حقا وخيارا طبيعيا لمجتمع أصلاني.

وجهتنا

لأننا معنيون كأقلية وطن أصلانية بلغتنا وخصوصيتنا القومية وحقوقنا الثقافية، ولأننا مقدمون بإرادة واعية على الخوض في هذا الحقل الذي تأخر العمل فيه، فإننا نتحمّل، كمجتمع بأفراده ومؤسساته، القسط الأكبر من مسؤولية التخطيط والعمل وتوفير الموارد اللازمة لإدارة اللغة العربية كلغة حيّة وناضجة، لها وجودها وبقاؤها على الرغم من تحديات العبرنة والعولمة والازدواجية بين محكية ومعيارية.

أما وإن التصور المفصّل الذي وضعناه يشكل تفكيكا لموضوعة اللغة العربية، فهو في مؤداه رؤيا لغوية نستشرف لها تطبيقات عملية سعيًا إلى تغيير الواقع اللغوي لجهة تطوير علاقتنا بلغتنا وثقافتنا وتطويرهما حيزا مفتوحا للحراك والنمو. وهي تطبيقات متنوعة متعددة المستويات تشكل مجتمعة سلسلة من الأفعال والممارسات والمبادرات الجمعية والفردية المعنية باللغة ومكانتها في حياتنا اليومية.

أما وجهتنا، فهي الاصطلاح على ثلاثة محاور عمل تتأسس عليها برامج التدخل وتطبيقاتها المختلفة وهي:

المحور الأول - النهوض باللغة العربية المعيارية في مجتمعنا وتعزيز مواقف العرب الفلسطينيين الإيجابية تجاهها كلغة حداثية قادرة على التطور والنمو بما يتّسع لتحولات الهوية والحياة والمعارف العلمية. ونفترض أنّ ثقفتنا بلغتنا وإنصافنا لها ضروريان لتطوير ممارسات ومسلكتنا لغوية تكون اللغة في صلبها. نقول هذا مُدركين أنّ الواقع اللغوي الراهن ارتسم

وتُشكّل مسألتا الحيوية اللغوية والشرط السياسي للغة العربية محورين يُنتجان على الدوام معيقات أمام انفتاح أفق العلاقة بيننا وبين لغتنا. ومن هنا أهمية أن يُحيط اجتهادنا هذا في وضع تصوّر متكامل باللغة كقضية وجودية، يتضمن خططا ومشاريع وسياسات تمثّل انتقالا منّا إلى إدارة اللغة لناحية تمكينها في المنافسة وتمكيننا منها كجزء من جهدنا العام لمواجهة شرطنا الوجودي وضمن آفاق تطورها كجماعة قومية لها امتدادها التاريخي في الحيزين المكاني والزمني.

يقينًا، إنّ إدارة اللغة والنهوض بها، في إطار جهودنا للنهوض بمجتمعنا، يستدعي منّا العمل وفق مناهج علمية نقدية تتجاوز ما اعتدناه من أنماط وما أسرنا من مبانٍ قد تكون متقدمة في التعاطي مع لغتنا وأنفسنا. وندرك أنّ التعاطي مع العربية كلغة أم يرتبط بمجمل تصوّرنا لمستقبلنا وذاتنا الجمعية في هذه الديار. وقد حزمنا أمرنا أن نُقدم على موضوعة اللغة ضمن رؤية منفتحة وحوارية قوامها التأشير والإيحاء من خلال برامج عمل محدّدة نقترحها مع ترك باب الاجتهاد مفتوحا لأفراد ومؤسسات وفعاليات تُطلق مبادراتها في طول البلاد وعرضها. ونفترض أنّ نجاحنا في هذا التحديّ مرتبط، إلى حدّ كبير، في تحرير اللغة من إسار ما ألفناه أحيانا من عادات وعصبيات وجمود. ومن هنا ارتباط إطلاق اللغة من إسارها برغبتنا الأساسية كجماعة في تحرير مجتمعنا وضمن نموها وتطوره بشكل طبيعي في مكانه التاريخي.

كمحصّلة توجّه عام خفيّ أو مُعلن إلى لغتنا العربية كلغة غير عملية أو حتى كعبء. بمعنى، أنه ينبغي رفع مكانة اللغة وتغيير صورتها في أعين مجتمعنا كجزء من جهد أشمل لتغيير تمثيلاتها الراهنة أو الموروثة في السياق العام. من هنا، توجّب إقناع أهلنا بالعزوف عن حصر التعامل مع لغتنا بين قطبين، تهميشها كلغة زائدة غير ذات جدوى أو تحويلها إلى جزء من ماضٍ هو مصدر فخر واعتزاز لفظي ليس إلا. فلغتنا - يجب أن تكون حاضرننا ومستقبلنا، أيضاً، منضفرة في هويتنا ووجودنا كميّون حيوي فاعل ومتحوّل.

على مستوى بُنية اللغة العربية الداخلية، نفترض أن العلاقة بين اللغة العربية المحكية وتلك المعيارية علاقة تكاملية تُغني إحداهما الأخرى وتجاوزها في تداخل وتقاطع يُنتجان حيزاً لغوياً رحباً يتسع لهذه وتلك. ومهما يكن، فهما ليستا في صراع ونقترح عدم زجهما في مفاضلة قد ترفع مكانة واحدة على حساب الأخرى. ونجدنا معنيين بحفظ الخصوصية التي تجسدها اللغة المحكية ضمن وجود جمعي تشكّل اللغة المعيارية بمعناها المكثّف قوامه الأساسي. بناءً عليه، نحفظ لبنات وأبناء مجتمعنا حق استخدام لغتهم المحكية أو المعيارية وفق ما يروونه مناسباً متجاوزين سؤال الأزواجية نحو شرعية إتقانها واستعمالها وفق مقتضيات الحياة وضرورتها وضمن تنوع لغوي في حدود اللغة العربية ذاتها.

المحور الثاني - إقناع مجتمع الأكثرية اليهودية من خلال الدولة ومؤسسات الحكم المركزي والمحلي على السواء، بضرورة مساواة مكانة

اللغة العربية لمكانة اللغة العبرية، في الحيز العام. وهو ما يستدعي مواصلة العمل مقابل مؤسسات الدولة الرسمية والأكاديمية على رفع مكانة اللغة العربية وزيادة حضورها كلغة رسمية لا تقل في مكانتها عن اللغة العبرية في كل مستوياتها. ونشير بارتياح إلى الجهد الذي بذله مجتمعنا ومؤسساته في هذا الباب، حتى الآن، مؤكّدين وجوب مواصلة الضغط على الدولة من خلال اعتماد الوسائل السياسية لتحقيق المساواة للغة العربية كجزء من معركة مجتمعنا من أجل المساواة الجوهرية الكاملة. ويندرج الشأن اللغوي في العادة ضمن الحقوق القومية والثقافية التي تسعى المجموعات القومية إلى إحقاقها في إطار سعيها إلى حفظ هويتها ووجودها والحيلولة دون الذوبان والاضمحلال ضمن ثقافة الأكثرية المهيمنة وأمام ضغوطاتها. من هنا، أهمية ألا تغيب الحقوق اللغوية، كأبرز الحقوق الجمعية، عن جدول أعمال مجتمعنا وهيئاته في علاقته بالدولة ومؤسساتها. ونشير إلى وجوب إيلاء اهتمام مكثّف بالحقوق الثقافية وبضمنها مسألة اللغة العربية في سعيها إلى ممارسة العيش الحرّ الكريم كأقلية قومية لها امتداد قومي وثقافي وتاريخي في هذا المكان.

المحور الثالث - إعادة بناء سياسات تدريس اللغة العربية وآدابها والثقافة العربية بأسرها وفق ما أشرنا إليه في تصوّرنا كلغة هوية وانتماء وتواصل، وكوسيلة للإبداع الثقافي والعلمي. ونؤكّد هنا دور المؤسسات التعليمية الهام على كل مراحلها في تطوير اللغة ومكانتها والعلاقة بها كونها أهم مؤسسات الجتمعة بما فيها اللغوية. ونرى للمؤسسات الأكاديمية أو شبه

الأكاديمية الرسمية والأهلية، لاسيما العربية منها، أو تلك التي تُعنى بالأبحاث والدراسات، دورا أساسيا في تطوير سياسات تعليمية لغوية جديدة تصبّ في الجهد المجتمعي العام لإدارة اللغة العربية لجهة تمكينها حيزاً مفتوحاً للحراك ولغةً حيويةً فاعلةً متفاعلةً. وندرك أن وجوب إعادة النظر في تدريس اللغة العربية وآدابها يستتبعه تغييرات واسعة وجذرية في المضامين والمواد والكتب التدريسية، وتدقيق فرضيات العمل المعتمدة، واستحداث طرائق تدريس جديدة وإعداد مدرّسي اللغة إعدادا جديدا.

مشروع لغوي كهذا يمتدّ على طول حياتنا وعرضها ويستدعي جهد عدد كبير من المؤسسات والجهات. وهو ما يحتم التنسيق والتعاون والشراكات، ولو في حدود الالتزام بخطوط عامة كما وردت في تصوّرنا اللغوي. التنسيق والتعاون لازمان لنا كشرط تمهيدي لنجاح عملية تدخلنا لتغيير الواقع اللغوي بالروح المشار إليها آنفا. ومن هنا دعوتنا جميع الجهات الرسمية والأهلية إلى الإسهام بقسطها في هذا المشروع الحيوي الذي يشكّل تمكينا لمجتمعنا ولغتنا وينطوي على إغناء الهوية والثقافة العربية والعامّة في البلاد. ونؤكّد أن الباب مفتوح للاجتهاد والمبادرة حتى في مستوى نقد تصورنا المطروح للنقاش العام. وكلنا أمل أن هناك من سيلبي دعوتنا ويباشر في إضافة ما لديه على ما أنجزناه هنا.